الرسول ﷺ وصاحبه في غار ثور

في طريق هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، التجأ هو وأبو بكر رضي الله عنه إلى غار ثور[١] واختبآ داخله، وجاء الكفار ووقفوا عند مدخل الغار، وسيطر

(١) غار ثور: الغار في اللغة: فجوة في الجبل تشبه البيت كالمغارة والكهف، والمراد به هنا: غار ثور الواقع على بعد ساعة سيراً من مكة.
[التفسير الوسيط ـ تفسير سورة التوبة].

قال ابن إسحاق: فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج، أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور ـ جبل بأسفل مكة ـ فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر؛ وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما. قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر رضي الله تعالى عنه قبل رسول الله ﷺ فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية؟ يقي رسول الله ﷺ بنفسه.

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم، وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله تعالى عنه، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه، حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما بسفرتهما[١] ونسيت أن تجعل لها عصاماً[٢] فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام، فتحل نطاقها فتجعله عصاماً، ثم علقتها به فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر: ذات النطاق لذلك.

(١) السُّفر: طعام يصنع للمسافر، وما يُحمل فيه هذا الطعام يسمى أيضاً «السفرة».
(٢) العصام: خيل تشد به القربة والسفرة وتحملان، والعصام أيضاً يطلق على عروة الوعاء التي يعلق بها.

الخوف على قلب أبي بكر خشية أن يقع رسول الله ﷺ في أيدي الكفار، وقال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، وكان أبو بكر بذلك يقرر واقعاً، فالكفار واقفون على باب الغار، والنبي ﷺ وأبو بكر في داخله، ونظرة واحدة من الكفار إلى داخل الغار تكشف الأمر كله.

فماذا قال رسول الله ﷺ؟

رفع الأمر إلى الله وقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1]. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

إذن.. فالرسول ﷺ رفع الأمر إلى الله، فهو وأبو بكر في معية الله، قول أبي بكر: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا.. هو قول الإنسان الخائف، ولكن قول الرسول ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. معناه أنه بقدرة البشر لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا، ولكننا ما دمنا في حماية الله تعالى وعنايته فإنهم لن يرونا؛ ذلك لأن قدرة الله ستزيغ أبصارهم فلن يرونا، وحتى إذا نظروا تحت أقدامهم فلن يرونا؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحفظنا، فنحن لا نحفظ أنفسنا، وهكذا جاءت هذه الآية؛ لتبين لنا كيف أن الله سبحانه وتعالى إذا كان معنا كانت لنا الغلبة، وأننا يجب أن نستعين بالله في جميع الأمور.

❁ ❁ ❁

= السيرة لابن هشام [٢/ ١٠٦ ـ ١٠٩]، وانظر دلائل النبوة للبيهقي [٤٧١ ـ ٤٧٥]، والبداية والنهاية لابن كثير [٣/ ١٧٨].

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٦٥٣]، ومسلم [٢٣٨١].

اثنان . . اللّه ثالثهما

يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾[1] [إبراهيم].

القول الثابت معناه أنه حق لا يعتريه تغيير. فالناس تتغير من حوله وهو يظل ثابتاً. والتثبيت يختلف في أعراف الناس باختلاف المثبت. افترضْ أن عندك عموداً مخلخلاً في البيت وجئت له بمهندسين ليثبتوه، فماذا يفعلون؟ يعملون له دعائم أرضية من أسفل. وتقول: أنا أحضرت له مهندساً كبيراً ثبته. إذا كان هذا في البشر، فما بالك إذا كان اللّه هو الذي سيثبت؟ فهذا يردك إلى أن المثبت لن يطرأ على تثبيته خلل.

إذن.. فكلمة تثبيت دلتنا على أن الإنسان ابن أغيار. وقد تقابله مصاعب ومتاعب في حياته. فنقول له: إياك أن تخور.. لماذا؟ لأن لك رباً.

ورسول اللّه ﷺ حينما كان في الغار وجاء القوم يبحثون عنه، ومروا أمام الغار. قال أبو بكر: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. فماذا قال له الرسول ﷺ المنطق كان يقتضي أن يقول له: لا.. حتى لو نظر أحدهم تحت قدميه فلن

---

(١) قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا اللّه.

وقيل: معنى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ يديمهم اللّه على القول الثابت.

وقيل: يثبتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت.

وقال القفّال وجماعة: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي في القبر؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يُبعثوا ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: عند الحساب.

تفسير القرطبي [٩/ ٣٦٢، ٣٦٣] بتصرف.

وعن البراء بن عازب رضي اللّه تعالى عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «المسلم إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه». فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

أخرجه البخاري [٤٦٩٩] واللفظ له، ومسلم [٢٨٧١].

يرانا، ولكنه لم يقل له ذلك، وإنما قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[١]. أبو بكر يتكلم عن القانون الكوني، ورسول الله ﷺ يتكلم عن خالق الكون سبحانه. قانون أبو بكر يقول بقوانين الكونيات: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، ورسول الله ﷺ يتحدث وكله ثقة بأن الله لن يسلمهما فيقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[٢].

إذن.. فوجه الرد على عبارة أبي بكر وهو يقول له: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. كيف عدل عن قوله: لا، لن يرانا أحد حتى لو نظر تحت قدميه. إلى عبارة أخرى هي: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾؛ هنا النبي ﷺ أراد أن يلفت أبا بكر إلى قضية إيمانية، ليس لأن نظرهم سيكون ضعيفاً فلن يرونا، ولكن لأننا في معية الله سبحانه وما دمنا في معية الله، فالله تعالى حافظنا منهم ومن شرهم، والله تعالى بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) عن البراء قال: اشترى أبو بكر رضي الله تعالى عنه من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مُر البراء فليحمل إليّ رحلي، فقال عازب: لا، حتى تُحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم.

قال: ارتحلنا من مكة فأحيينا ـ أو سَرَينا ـ ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه، إذا صخرة أتيتها، فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله، فاضطجع النبي ﷺ، ثم انطلقت أنظر ما حولي: هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له، لمن أنت يا غلام؟ فقال لرجل من قريش سماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: فهل أنت حالب لنا؟ قال: نعم. فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه فقال هكذا، ضرب إحدى كفيه بالأخرى فحلب لي كثبة من لبن، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت. ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله، قال: «بلى». فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

أخرجه البخاري [٣٦٥٢].

(٢) أخرجه البخاري [٣٦٦٣]، ومسلم [٢٣٨١].

(٣) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق].

دليل النبي ﷺ في الهجرة

كانت معرفة الطريق من مكة إلى المدينة على زمن رسول الله ﷺ تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفازات والمتاهات وحينما قام الرسول ﷺ بالهجرة اتخذ دليلاً للطريق، وكان دليله كافراً، فلا يتأتى السير في مثل هذه الأرض بلا دليل[١].

---

(١) وقد صحَّ أن الدليل أخذ بهم طريق السواحل[١]. وفصل ابن إسحاق وصف الطريق الذي سلكوه قال: «فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان، ثم سلك بهما على أسفل أمج[٢] ثم استجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الخرّار[٣]، ثم سلك ثنية المرة، ثم سلك بهما لقفاً[٤]، ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة محاج، ثم سلك بهما مرجح محاج، ثم تبطن بهما مرجح محاج، ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين ثم من ذي كشر، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تعهن، ثم على العبابيد، ثم أجاز بهما الفاجة.

قال ابن هشام: ثم هبط بهما العرج وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهم، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم: أوسن بن حجر على جمل له يقال له: ابن الرداء إلى المدينة وبعث معه غلاماً يقال له: مسعود بن هنيدة، ثم خرج بهما دليلهما من العرج، فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن رئم، ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، يوم الاثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل[٥].

السيرة النبوية الصحيحة [١/ ٢١٧، ٢١٨]، وسيرة ابن هشام [٢/ ١١٣، ١١٤].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٠٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها بلفظ: «وانطلق معهما عامر ابن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل».

(٢) أمج: بلد من أعراض المدينة.

(٣) الخرار: موضع بالحجاز، يقال: قرب الجحفة، وقيل: هو وادٍ من أودية المدينة، وقيل: موضع بخيبر.

(٤) لقفاً: هي ثنية بين مكة والمدينة.

(٥) انظر السيرة لابن هشام [٢/ ١١٣، ١١٤]، والبيهقي في دلائل النبوة [٢/ ٥٠٣]، والبداية والنهاية لابن كثير [٣/ ١٨٩، ١٩٠].

سراقة بن مالك
يتتبع أثر رسول الله ﷺ

كان سراقة بن مالك يتتبع أثر الرسول ﷺ ليفوز بالجائزة التي جعلها الكفار لمن يدلهم على مكان الرسول ﷺ، وكان على فرس له، فساخت قوائم الفرس في الرمل، وهذه من المعجزات التي قال الله عنها: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] ففهم سراقة من ذلك أنه منع من متابعته، وأن النبي ﷺ ظاهر على قومه فناداهم وقال لهم: انظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول له: وما تبتغي منا، فقال سراقة: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك، فأمر النبي ﷺ أبا بكر أن يكتب له فكتب له، فأخذه ورجع ولم يذكر شيئاً مما كان، حتى أسلم بعد فتح مكة[1].

---

(١) قال سراقة: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم. قال: فبينا أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيت ركب ثلاثة مروا على آنفاً إني لأراهم محمداً وأصحابه.

قال: فأومأت إليه بعيني أن اسكت. ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم. قال لعله، ثم سكت.

قال: ثم مكثت قليلاً ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأخرج لي من دبر حجرتي، ثم أخذت قداحي التي استقسم بها ثم انطلقت فلبست لأمتي، ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره: لا يضره.

قال: وقد كنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة الناقة.

قال: فركبت على أثره، فبينا فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه.

قال: فقلت: ما هذا؟!

قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره: لا يضره.

قال: فأبيت إلا أن أتبعه.

قال: فركبت في أثره، فبينا فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه. =

= قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره: لا يضره.
قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار.
قال: فعرفت حين رأيت أنه قد منع مني، وأنه ظاهر.
قال: فناديت القوم، فقلت: أنا سراقة بن جعشم، انظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه.
قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «قل له وما تبتغي منا؟» فقال لي ذلك أبو بكر.
قال قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك.
قال: اكتب له يا أبا بكر.
فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزفة، ثم ألقاه إليّ، فأخذته فجعلته في كنانتي، ثم رجعت فسكت، فلم أذكر شيئاً مما كان. ثم حكى خبر لقائه برسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإسلامه[1].
وقد ذكر سراقة في رواية صحيحة أنه اقترب من الاثنين حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً، وأن وصيته انت: «أخف عنا»[2]. وتذكر رواية صحيحة أنه صار آخر =

(١) انظر السيرة لابن هشام [٢/ ١١١، ١١٢]، ودلائل النبوة للبيهقي [٢/ ٤٧٨، ٤٨٨]، وابن الأثير في أسد الغابة [٢/ ٤١٣، ٤١٤].

(٢) عن مالك المدلجي أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: «جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية واحد منهما لمن قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه.
قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا. ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي - وهي من وراء أكمة - فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي، حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها: أضيرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره فركبت فرسي - وعصيت الأزلام - تقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين. فخررت عنها ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غثان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم. ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية. وأخبرتهم أخبار =

❁ ❁ ❁

= النهار مسلحة للنبي ﷺ بعد أن كان جاهداً عليه أوله. وأن الرسول هو الذي دعا عليه فصرعه الفرس. وقد احتاط الاثنان في الكلام مع الناس الذين يقابلونهم في الطريق، فإذا سئل أبو بكر عن رسول الله قال: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير[1].

السيرة النبوية الصحيحة [١/ ٢١٥ ـ ٢١٧].

= ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني، ولم يسألاني إلا أن قال: «أخف عنا». فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ».

جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٠٦].

(١) عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يُعرف ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف.

قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟

فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل.

قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير. فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يا رسول الله، هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت نبي الله ﷺ فقال: «اللهم اصرعه» فصرعه الفرس، ثم قامت تحمحم، فقال: يا نبي الله مرني بم شئت.

قال: «قف مكانك، لا تتركن أحداً يلحق بنا».

قال: فكان أول النهار جاهداً على نبي الله ﷺ، وكان آخر النهار مسلحة له.

جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩١١].

قصة أم معبد

قال الشيخ في قصيدة موكب النور:

وأتـى أم مـعـبـد فـتـبـسـامـت ... ويـحـهـا.. ويـحـهـا وويـح كـريـم
قـدّمـت شـاتـهـا بـضـرع بـخـيـل ... وإذا الـلّـهُ كـان عـونَ نـبـي
وهـي مـن فـكـرة الـقِـرى فـي دوار ... حـيـن تـؤذيـه صـدمـة الإعـسـار
فـإذا مـسّـه فـال كـالـمـدرار ... فازجر العقلَ عن حدود اقتدار[1]

(١) عن هشام بن حبيش بن خويلد صاحب رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة وأبو بكر رضي الله عنه، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، ودليلهما الليثي عبد الله بن أريقط، مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة ثم تسقي وتطعم، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين مسنتين فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد»؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم قال: «هل بها من لبن»؟ قالت: هي أجهد من ذلك قال: «أتأذنين لي أن أحلبها»؟ قالت: بأبي أنت وأمي إن رأيت لها حلباً فاحلبها فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وسمى الله تعالى ودعا لها في شاتها. فتفاجت عليه ودرت فاجترت فدعا بإناء يربض الرهط فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم حتى أراضوا ثم حلب فيه الثانية على هدة حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها ثم بايعها وارتحلوا عنها فقل ما لبثت حتى جاءها زوجها أبو معبد ليسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزالاً مخهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن أعجبه قال: من أين لك هذا يا أم معبد؟! والشاء عازب حائل ولا حلوب في البيت، قالت: لا والله إلا إنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال: صفيه لي يا أم معبد، قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة أبلج الوجه، حسن الخلق لم تعبه ثجلة ولم تزريه صعلة، وسيم قسيم في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف وفي صوته صهل، وفي عنقه سطع وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق فصلاً لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ربعة لا تشنأه من طول ولا تقتحمه عين من قصر غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً له رفقاء يحفون به إن قال سمعوا لقوله وإن أمر تبادروا إلى أمره محفود محشود لا عابس ولا مفند. قال أبو معبد: هذا =

= والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً وأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى واهتدت به فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيال قصي ما زوى الله عنكم به من فعال لا تجازى وسودد
ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته من يسعد الله يسعد
وليهن بني كعب مقام فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت عليه صريحاً ضرة الشاة مزبد
فغادره رهناً لديها لحالب يرددها في مصدر بعد مورد

فلما سمع حسان الهاتف بذلك شبّب يجاوب الهاتف فقال:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم وقدس من يسري إليهم ويغتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم فأرشدهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوي ضُلّال قوم تسفهوا عمى وهداة يهتدون بمهتد
وقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد
وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد

أخرجه الحاكم في المستدرك [٣/ ٩، ١٠] وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ويستدل على صحته وصدق رواته بدلائل:

فمنها: نزول المصطفى ﷺ بالخيمتين متواتر في أخبار صحيحة ذوات عدد.

ومنها: أن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان، وقد أخذوه لفظاً بعد لفظ عن أبي معبد وأم معبد.

ومنها: أن له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال ولا وهن في الرواة.

ومنها: أن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه فأما الإسناد الذي رويناه بسياقة الحديث عن الكعبيين فإنه إسناد صحيح عال للعرب الأعاربة وقد علونا في حديث الحر بن الصباح.

وقال الذهبي في التلخيص: صحيح. ونزول المصطفى بالخيمتين متواتر في أخبار صحيحة، ولذلك دلائل:

منها: أن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون =

❁ ❁ ❁

= وقد أخذوه عن أبي معبد وأم معبد.
ومنها: أن له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه لا إرسال ولا وهن في الرواة.
ومنها: أن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه.
وأخرجه البيهقي في الدلائل [٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٤]، والطبراني في الكبير [٤/ ٣٦٠٥]، وذكره الهيثمي في المجمع [٦/ ٥٨ ـ ٦١] وقال: رواه الطبراني وفي إسناده جماعة لم أعرفهم.
وقال الدكتور أكرم العمري: وقد اشتهر في كتب السيرة والحديث خبر نزول الرسول ﷺ وأصحابه بخيمة أم معبد بقديد طالبين القِرى، فاعتذرت لهم لعدم وجود طعام عندها، إلا شاة هزيلة لا تدر لبناً. فأخذ الشاة فمسح ضرعها بيده، ودعا الله، وحلب في إناء حتى علت الرغوة، وشرب الجميع، ولكن هذه الرواية طرقها ما بين ضعيفة وواهية إلا طريقاً واحدة يرويها الصحابي قيس بن النعمان السكوني ونصها: «لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخفيان نزلا بأبي معبد فقال: والله ما لنا شاة، وإن شاءنا لحوامل فما بقي لنا لبن. فقال رسول الله ﷺ: أحسبه فما تلك الشاة؟ فأتي بها. فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها، ثم حلب عساً فسقاه، ثم شربوا، فقال: أنت الذي يزعم قريش أنك صابئ؟ قال: إنهم ليقولون. قال: أشهد أن ما جئت به حق. ثم قال: أتبعك قال: حتى لا تسمع أنا قد ظهرنا. فاتبعه بعدُه. وهذا الخبر فيه معجزة حسية للرسول ﷺ. شاهدها أبو معبد فأسلم[1].
السيرة النبوية الصحيحة: [١/ ٢١٢ ـ ٢١٥].

(١) أخرجه البزار في مسنده [١٣٤٢ ـ كشف ـ ١٧٤٣] وقال: لا نعلم روى قيس عن النبي ﷺ إلا هذا، ولا تعلمه بهذا اللفظ إلا عنه، وهو يخالف سائر الأحاديث في قصة أم معبد. وذكره الهيثمي في المجمع [٦/ ٦١] وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

وصول الرسول ﷺ المدينة

قال الشيخ في قصيدة موكب النور:

حرقت قلبها المدينة شوقاً ... عبقرياً لطلعة المختار
أسرعي ناقُ فوق رحلك نور ... ترتجيه مواكب الأنصار
رحمة للحبيب يرجو حبيباً ... فيرى الدهر في أقلّ انتظار
حشدوا حشدهم فلما تجلّى ... كبر الحشد من جلال الوقار
مرحباً مرحباً بأكرم داع ... وعلى الرَّحب يا جليل المزار
أنتَ بشرى عيسى ودعوة إبراهيم ... . . جاءت سليلة الأطهار
أنت يا غرة الوجود خيارٌ ... من خيار مقطّرٌ من خيار
فاقض فيما لنا بما أنت قاضٍ ... ذاك حق الأنصار في كل دار
جلجل الحقُّ قوة وحجاجاً ... واضحاً نهجُه وضوحَ النهار
فدها الشرك ما دهاهُ وخرّت ... جبهةُ الغيّ في سحيق القرار[1]

(١) كان المسلمون في المدينة قد سمعوا بخروجه من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه، حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه انتظروه حتى لم يبق ظل يستظلون به فعادوا. وقدم الرسول وقد دخلوا بيوتهم، فبصر به يهودي فناداهم، فخرجوا فاستقبلوه، وكانت فرحتهم به غامرة فقد حملوا أسلحتهم وتقدموا نحو ظاهر الحرة فاستقبلوه.

وقد نزل رسول الله ﷺ في قباء في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء[1]. =

(١) عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: «وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه، حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون. فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار =

= ولما عزم رسول الله ﷺ أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بني النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم[١].

وقد سجلت رواية أن عدد الذين استقبلوه خمسمائة من الأنصار. فأحاطوا بالرسول ﷺ وبأبي بكر وهما راكبان، ومضى الموكب داخل المدينة، «وقيل في المدينة: جاء نبي الله»[٢]. وقد صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان في الطرق ينادون: يا محمد يا رسول الله، يا محمد يا رسول الله[٣].

قال الصحابي البراء بن عازب، وهو شاهد عيان: «ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ»[٤].

أما تلك الروايات التي تفيد استقباله بنشيد «طلع البدر علينا من ثنيات الوداع» فلم ترد بها رواية صحيحة[٥]. =

= - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك؛ فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ.

جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٠٦].

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٣٢] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة، في حي يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، قال: فجاءوا متقلدي سيوفهم.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩١١] عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرة، ثم بعث إلى الأنصار فجاءوا إلى نبي الله ﷺ وأبي بكر فسلموا عليهما وقالوا: اركبا آمنين مطاعين فركب نبي الله ﷺ وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح، فقيل في المدينة: جاء نبي الله، جاء نبي الله ﷺ، فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٠٠٩] عن البراء بن عازب بلفظ: «فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطريق ينادون: يا محمد، يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله».

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٢٥] عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم وكانوا يقرئون الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ، ثم قدم النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ، فما قدم حتى قرأت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ في سورة من المفصل».

(٥) قال الحافظ في الفتح: وأخرج أبو سعيد في «شرف المصطفى» ورويناه في «فوائد الخلعي» من طريق عبيد الله بن عائشة منقطعاً: لما دخل النبي ﷺ المدينة جعل الولائد يقلن:

طلع البدر علينا من ثنية الوداع ... وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وهو سند معضل، ولعل ذلك كان في قدومه من غزوة تبوك. فتح الباري [٧/ ٦٧٨].

= وأقبل رسول الله ﷺ يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب الأنصاري فتساءل: «أي بيوت أهلنا أقرب»؟

فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي. فنزل في داره[1]. وقد ورد في كتب السيرة أن زعماء الأنصار تطلعوا إلى استضافة الرسول ﷺ، فكلما مر بأحدهم دعاه للنزول عنده، فكان يقول لهم: «دعوا الناقة فإنها مأمورة» فبركت على باب أبي أيوب[2] وكان داره طابقين، قال أبو أيوب الأنصاري:

«لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: يا نبي الله ـ بأبي أنت وأمي ـ إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، ننزل نحن فنكون في السفل، فقال: يا أبا أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت.

قال: فلقد انكسر حبٌ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه[3]. =

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩١١] عن أنس بن مالك بلفظ: فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فجعل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء وهي معه، فسمع من نبي الله ﷺ ثم رجع إلى أهله.

فقال نبي الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب»؟

فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي.

قال: «فانطلق فهيئ لنا مقيلاً». قال: قوما على بركة الله تعالى.

(٢) جزء من حديث أخرجه البيهقي في الدلائل [٢/ ٥٠٤]، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية [٣/ ٢٠٠]، وابن هشام في السيرة النبوية [٢/ ١١٨]، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح [٧/ ٦٥٧] وهو حديث ضعيف.

(٣) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ نزل عليه فنزل النبي ﷺ في السفل وأبو أيوب في العلو. قال: فانتبه أبو أيوب ليلة فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ فتنحّوا، فباتوا في جانب، ثم قال النبي ﷺ «السفل أرفق» فقال: لا أعلو سقيفة أنت تحتها، فتحوّل النبي ﷺ في العلو وأبو أيوب في السفل. جزء من حديث أخرجه مسلم [٢١٧١/ ٣٥٠].

وعن أبي أيوب قال: لما نزل عليّ رسول الله ﷺ قلت: بأبي أنت وأمي إني أكره أن أكون فوقك وتكون أسفل مني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أرفق بي أن أكون في السفل لما يغشانا من الناس». قال: فلقد رأيت جرة لنا انكسرت فأهريق ماؤها فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء؛ فرقا أن يصل إلى رسول الله ﷺ شيء يؤذيه. أخرجه الحاكم في المستدرك [٣/ ٤٦١] واللفظ له، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي وأخرجه الطبراني في الكبير [٤/ ٣٨٥٥] وذكره ابن هشام في السيرة [٢/ ١٢٣]، والبيهقي في الدلائل [٢/ ٥١٠].

= وقد أفادت رواية ابن سعد أن مقامه بدار أبي أيوب سبعة[1] أشهر.

وقد افترعت الأنصار على سكنى المهاجرين[2]. وآثروهم على أنفسهم، فنالوا من الثناء العظيم الذي خلد ذكرهم على مر الدهور وتتالي الأجيال، إذ ذكر الله مأثرتهم في قرآن يتلوه الناس: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3] (الحشر). وقد أثنى رسول الله ﷺ على الأنصار ثناء عظيماً فقال: «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار»[4].

وقال أيضاً: «لو سلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم»[5].

السيرة النبوية الصحيحة: [١/ ٢١٨ ـ ٢٢٠] بتصرف.

وقال ابن القيم: وبلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وقصده المدينة. وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد حر الشمس، رجعوا على عادتهم إلى منازلهم، فلما كان يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة، خرجوا على عادتهم، فلما حمي حر الشمس رجعوا، وصعد رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين، يزول بهم السراب، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدكم الذي تنتظرونه، فبادر الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ، وسمعت الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحاً بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم)، فسار حتى نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فنزل على كلثوم الهدم. =

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/ ٢٣٧].

(٢) عن أم العلاء رضي الله عنهما: أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين. جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٢٩].

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ، لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت. ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله عز وجل ـ أو ضحك ـ من فلان وفلانة. فأنزل الله عز وجل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. أخرجه البخاري [٤٨٨٩] واللفظ له، ومسلم [٢٠٥٤/ ١٧٣].

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٧٧٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٧٧٨] عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

= وقيل: بل على سعد بن خيثمة، والأول أثبت، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء، وهو أول مسجد، أسس بعد النبوة.

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر الله له، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي.

ثم ركب، فأخذوا بخطام راحلته، هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة.

فقال: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة».

فلم تزل ناقته سائرة به لا تمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه في النزول عليهم، ويقول: «دعوها فإنها مأمورة».

فسارت حتى وصلت إلى موضع مسجد اليوم، وبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت، فرجعت، فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار أخواله ﷺ[1]. وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله، يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله».

وجاء أسعد بن زرارة، فأخذ بزمام راحلته. وكانت عنده[2].

وأصبح كما قال أبو قيس صرمة الأنصاري، كان ابن عباس يختلف إليه يتحفظ منه هذه الأبيات:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى حبيباً مواتياً

ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا

فلما أتانا واستقرت به النوى ... وأصبح مسروراً بطيبة راضيا

وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم ... بعيد ولا يخشى من الناس باغيا

بذلنا له الأموال من حل مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا

نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا

ونعلم أن الله لا رب غيره ... وأن كتاب الله أصبح هاديا

قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ بمكة، فأمر بالهجرة وأنزل عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾[3]. =

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/ ٢٣٣]: وجاء أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب فحط رحله فأدخله منزله، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله» وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلة رسول الله ﷺ فكانت عنده.

(٣) أخرجه الترمذي [٣١٣٩] وقال: حديث حسن صحيح، وقال الألباني في ضعيف الترمذي [٦١١]: ضعيف الإسناد. وأخرجه الحاكم في المستدرك [٣/ ٣] وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

= قال قتادة: أخرجه الله من مكة إلى المدينة مخرج صدق ونبي الله يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطاناً نصيراً، وأراه الله عز وجل دار الهجرة، وهو بمكة فقال: «رأيت دار هجرتكم بسبخة ذات نخل بين لابتين»(١).

وذكر الحاكم في «مستدركه» عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال لجبريل: «من يهاجر معي»؟ قال: أبو بكر الصدّيق(٢).

قال البراء: أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئان الناس القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه في عشرين راكباً، ثم جاء رسول الله ﷺ فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون: هذا رسول الله قد جاء(٣).

وقال أنس: شهدته يوم دخل المدينة فما رأيت يوماً قط؛ كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا، وشهدته يوم مات، فما رأيت يوماً قط، كان أقبح ولا أظلم من يوم مات(٤).

فأقام في منزل أبي أيوب حتى بنى حجره ومسجده، وبعث رسول الله ﷺ وهو في منزل أبي أيوب زيد بن حارثة وأبا رافع، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة ابن زيد، وأمه أم أيمن، وأما زينب بنت رسول الله ﷺ فلم يمكنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر، ومنهم عائشة فنزلوا في بيت حارثة بن النعمان(٥).

زاد المعاد [٣/ ٥٨ ـ ٦١].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٢٢٩٧] عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: «قد أريت دار هجرتكم رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان».

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك [٣/ ٥] وقال: حديث صحيح الإسناد والمتن ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح غريب.

(٣) أخرجه البخاري [٣٩٢٥] بلفظ: «أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانوا يقرئون الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر. ثم قدم عمر بن الخطّاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ، ثم قدم النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ، فما قدم حتى قرأت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى] في سور من المفصل».

(٤) أخرجه أحمد في المسند [٣/ ٢٤٠] بلفظ: «شهدته عليه الصلاة والسلام يوم دخل علينا المدينة فلم أر يوماً أضوأ منه، ولا أحسن منه وشهدته يوم مات فلم أر يوماً أقبح منه». وأخرجه الدارمي في سننه [٨٩].

(٥) ذكر ذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/ ٢٣٧، ٢٣٨].

بناء المسجد النبوي الشريف

كان رسول الله ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة، ثم أمر ببناء المسجد في أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين من بني النجار. وقد اشتراها رسول الله ﷺ، وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها وصفوا الحجارة في قبلة المسجد، وما أعظم سرورهم وهم يعملون في بنائه ورسول الله ﷺ يعمل معهم وهم يرتجزون:

اللّهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة[1]

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة، في حي يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، قال: فجاءوا متقلدي سيوفهم. قال: وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب، قال: فكان يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مرابض الغنم. قال: ثم إنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار، فجاءوا.

فقال: «يا بني النجار، ثامنوني حائطكم هذا»، فقالوا: لا والله ولا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى.

قال: فكان فيه ما أقول لكم: كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، قال: فصفوا النخل قبلة المسجد، قال: وجعلوا عضادتيه حجارة.

قال: جعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقولون:

اللّهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

أخرجه البخاري [٣٩٣٢].

وعن عروة بن الزبير قال: «فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ. ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس، حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل: غلامين يتيمين في حجر سعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل». ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: لا بل نهبه لك يا =

وقد بناه أولاً بالجريد ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين.

= رسول الله ﷺ، فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول:

هذا الجمال لا جمال خيبر ... هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة ... فانصر الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي. أخرجه البخاري [٣٩٠٦].

وقال الحافظ: قوله: «وأسس المسجد الذي أسس على التقوى» أي مسجد قباء، وفي رواية عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن عروة قال: الذين بني فيهم المسجد الذي أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف، وكذا في حديث ابن عباس عند ابن عائذ ولفظه: «ومكث في بني عمرو بن عوف ثلاث ليال واتخذ مكانه مسجداً فكان يصلي فيه، ثم بناه بنو عمرو بن عوف فهو الذي أسس على التقوى» وروى يونس بن بكير في «زيادات المغازي» عن المسعودي عن الحكم ابن عتيبة قال: «لما قدم النبي ﷺ فنزل بقباء قال عمار بن ياسر: ما لرسول الله ﷺ بد من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه، فجمع حجارة فبنى مسجد قباء، فهو أول مسجد بني» يعني بالمدينة، وهو في التحقيق أول مسجد صلى النبي ﷺ فيه بأصحابه جماعة ظاهراً، وأول مسجد بني لجماعة المسلمين عامة، وإن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد لكن لخصوص الذي بناها كما تقدم في حديث عائشة في بناء أبي بكر مسجده.

وروى ابن أبي شيبة عن جابر قال: «لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله ﷺ بسنين نعمر المساجد ونقيم الصلاة» وقد اختلف في المراد بقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨] فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء هذا وهو ظاهر الآية، وروى مسلم من طريق عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه: «سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال: هو مسجدكم هذا»(١) ولأحمد والترمذي من وجه آخر عن أبي سعيد «اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى فقال أحدهما: هو مسجد النبي ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: هو هذا، وفي ذلك - يعني مسجد قباء - خير كثير»(٢)، ولأحمد عن سهل بن سعد نحوه، وأخرجه من وجه آخر عن سهل بن سعد عن أبي بن كعب مرفوعاً، قال القرطبي: هذا السؤال صدر ممن ظهرت له المساواة بين المسجدين في اشتراكهما في أن كلاً منهما بناه النبي ﷺ، فلذلك سئل النبي ﷺ عنه فأجاب بأن المراد مسجده، وكأن =

(١) أخرجه مسلم [١٣٩٨/ ٥١٤].

(٢) رواه أحمد في المسند [٣/ ٨]، والترمذي [٣٢٣] وصححه، واللفظ له. وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٦٦].

= المزية التي اقتضت تعيينه دون مسجد قباء لكون مسجد قباء لم يكن بناؤه بأمر جزم من الله لنبيه، أو كان رأياً رآه بخلاف مسجده، أو كان حصل له أو لأصحابه فيه من الأحوال القلبية ما لم يحصل لغيره، انتهى.

ويحتمل أن تكون المزية لما اتفق من طول إقامته ﷺ بمسجد المدينة، بخلاف مسجد قباء فما أقام به إلا أياماً قلائل، وكفى بهذا مزية من غير حاجة إلى ما تكلفه القرطبي، والحق أن كلاً منهما أسس على التقوى، وقوله تعالى في بقية الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨] يؤيد كون المراد مسجد قباء.

وعند أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نزلت ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ في أهل قباء»[1] وعلى هذا فالسر في جوابه ﷺ بأن المسجد الذي أسس على التقوى مسجده رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء، والله أعلم. قال الداودي وغيره: ليس هذا اختلافاً؛ لأن كلاً منهما أسس على التقوى وكذا قال السهيلي وزاد غيره أن قوله تعالى: ﴿مِن أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يقتضي أنه مسجد قباء؛ لأن تأسيسه كان في أول يوم حلّ النبي ﷺ بدار الهجرة، والله أعلم. فتح الباري [٧/ ٦٥٦، ٦٥٧].

كانت الهجرة قاسية الوقع على المهاجرين. وقف رسول الله ﷺ بالحزورة في سوق مكة فقال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[2].

لقد واجه المهاجرون من مكة صعوبة اختلاف المناخ، فالمدينة بلدة زراعية، تغطي أراضيها بساتين النخيل، ونسبة الرطوبة في جوها أعلى من مكة، وقد أصيب العديد من المهاجرين بالحمى منهم أبو بكر وبلال. فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

فأخبرت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقال: «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدّها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة»[3].

السيرة النبوية الصحيحة [٢٢٢، ٢٢٣].

(١) رواه أبو داود [٤٤]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٤].

(٢) أخرجه الترمذي [٣٩٢٥] وقال: حديث حسن غريب صحيح، وابن ماجه [٣١٠٨] واللفظ له، عن عبد الله بن عدي بن الحمراء. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٢٥٢٣].

(٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال. قالت: فدخلت عليهما، فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

= وقال ابن القيم في بناء المساجد:

قال الزهري: بركت ناقة النبي ﷺ موضع مسجده وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين، وكان مربداً لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار، كانا في حجر أسعد بن زرارة، فساوم رسول الله ﷺ الغلامين بالمربد، ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير، وكان جداراً ليس له سقف، وقبلته إلى بيت المقدس، وكان يصلي فيه ويجمّع أسعد بن زرارة قبل مقدم رسول الله ﷺ، وكان فيه شجرة غرقد وخرب ونخل وقبور للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت، وبالخرب فسويت وبالنخل والشجر فقطعت وصفّت في قبلة المسجد، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، والجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع، ثم بنوه باللبن، وجعل رسول الله ﷺ يبني معهم، وينقل اللبن والحجارة بنفسه ويقول:

اللّهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان يقول:

هذا الجمال لا جمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر[1]

وجعلوا يرتجزون، وهم ينقلون اللبن، ويقول بعضهم في رجزه:

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: باباً في مؤخره، وباباً يقال له: باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه رسول الله ﷺ، وجعل عمده الجذوع، وسقفه بالجريد، وقيل له: ألا تسقفه، فقال: «لا عريش كعريش موسى» وبنى إلى جنبه بيوت أزواجه باللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، فلما فرغ من البناء بنى بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد قبليه، وهو مكان حجرته اليوم، وجعل لسودة بنت زمعة بيتاً آخر[2].

زاد المعاد [٣/ ٦٢، ٦٣].

= كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة». أخرجه البخاري [٣٩٢٦].

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/ ٢٣٩].

(٢) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/ ٢٤٠].

معاهدة الرسول ﷺ[1] مع اليهود في المدينة

قال الشيخ في قصيدة موكب النور:

فاقض فيما لنا بما أنت قاضٍ ذاك حق الأنصار في كل دار

(١) لقد نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخية، واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات، وقد سُميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة الدستور والوثيقة.

طرق ورود الوثيقة «الصحيفة»:

وقد اعتمد الباحثون المعاصرون على الوثيقة في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة ولكن من الضروري جداً التأكد أولاً من مدى صحة الوثيقة قبل أن تبنى عليها الدراسات، خاصة أن أحد الباحثين يرى أن الوثيقة موضوعة.

ونظراً لأهمية الوثيقة التشريعية إلى جانب أهميتها التأريخية، فلا بد من تحكيم مقاييس أهل الحديث فيها لبيان درجة قوتها أو ضعفها، وما ينبغي أن يتساهل فيها كما يفعل مع الروايات والأخبار التأريخية الأخرى. إن أقدم من أورد نص الوثيقة كاملاً هو محمد بن إسحاق «ت١٥١هـ» لكنه أوردها دون إسناد[1]. وقد صرح بنقلها عنه كل من ابن سيد الناس[2] وابن كثير[3] فوردت عندهما دون إسناد أيضاً، وقد ذكر البيهقي إسناد ابن إسحاق للوثيقة التي تحدد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون البنود التي تتعلق باليهود؛ لذلك لا يمكن الجزم بأنه أخذها من نفس هذه الطريق أيضاً. وقد ذكر ابن سيد الناس أن ابن أبي خيثمة[4] أورد الكتاب «الوثيقة» فأسنده بهذا الإسناد: «حدثنا أحمد بن خباب أبو الوليد حدثنا عيسى بن يوسف حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده. أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحوه ـ أي بنحو ـ

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام [٢/ ١٢٦ ـ ١٢٩].

(٢) انظر: عيون الأثر [١/ ١٩٧ ـ ١٩٨].

(٣) انظر: البداية والنهاية [٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦].

(٤) هو الحافظ الحجة الإمام أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب النسائي المتوفي سنة ٢٧٩هـ.

جلجل الحقُّ قوة وحجاجاً واضحاً نهجُه وضوحَ النهار

= الكتاب الذي أورده ابن إسحاق»[1]، ولكن يبدو أن الوثيقة وردت في القسم المفقود من تاريخ ابن أبي خيثمة إذ لا وجود لها فيما وصل إلينا منه. كذلك وردت الوثيقة في كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام بإسناد آخر هو: «حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح قالا: حدثنا الليث بن سعد قال: حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب». [2] وسرده.

كما وردت الوثيقة في كتاب الأموال لابن زنجويه من طريق الزهري أيضاً.

هذه هي الطرق التي وردت منها الوثيقة بنصها الكامل، والتطابق كبير بين سائر الروايات سوى بعض التقديم والتأخير في العبارات أو اختلاف بعض المفردات أو زيادة بنود قليلة، ولا يؤثر هذا الاختلاف على مضمونها العام.

مدى صحة الوثيقة:

اعتمد عدد من الباحثين المعاصرين على الوثيقة فبنوا عليها دراساتهم، في حين ذهب الأستاذ يوسف العش إلى أن الوثيقة موضوعة فهو يقول: «إنها لم ترد في كتب الفقه والحديث الصحيح رغم أهميتها التشريعية، بل رواها ابن إسحاق بدون إسناد، ونقلها عنه ابن سيد الناس، وأضاف أن كثير بن عبد الله بن عمرو المزني روى هذا الكتاب عن أبيه عن جده. وقد ذكر ابن حبان البستي: أن كثير المزني روى عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحلُّ ذكرها في الكتب ولا الرواية عنها إلا على جهة التعجب. ويرى العش أن ابن إسحاق اعتمد على رواية كثير لكنه تعمد حذف الإسناد.

لقد ذهب الأستاذ العش إلى ذلك؛ لأنه تصور أن الوثيقة لم يروها غير ابن إسحاق ولم يعثر على إسناد لها سوى ما ذكره ابن سيد الناس من رواية ابن أبي خيثمة لها من طريق كثير المزني. لكن أبا عبيد القاسم بن سلام أورد الوثيقة من طريق الزهري وهي طريق مستقلة لا صلة لها بكثير المزني. ونظراً لكون ابن إسحاق من أبرز تلاميذ الزهري، فإن ثمة احتمالاً لأن يكون قد أورد الوثيقة من طريقه، لولا أن البيهقي ذكر إسناد ابن إسحاق للوثيقة التي تحدد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون أن تتناول البنود المتعلقة بيهود، ولا يمكن الجزم بأن ابن إسحاق أخذ البنود المتعلقة بيهود من هذه الطرق أم من طريق أخرى. فقال البيهقي: «أخبرني أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال حدثني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس بن شريق قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب هذا الكتاب كان مقروناً بكتاب الصدقة» والحديث بهذا الإسناد ضعيف؛ لأن عثمان تحملها وجادة وفي الإسناد رجال فيهم ضعف مثل عثمان فهو صدوق له أوهام ويونس بن بكير يخطئ. =

(١) انظر: عيون الأثر [١/ ١٩٨].

(٢) انظر: الأموال [٥١٧].

فذها الشرك ما دهاهُ وخرّت جبهةُ الغيِّ في سحيق القرار

* * *

= والعطار ضعيف وتحمله للسيرة صحيح. فالرواية على ضعفها صالحة للاعتبار وقد توبعت، وإن هذا النص يهدم الأساس الذي بنى عليه الأستاذ العش رأيه. كما أنه لا يمكن الحكم على الوثيقة بأنها موضوعة؛ لأن كتب الحديث لم ترو نصها كاملاً!! فقد أوردت كتب الحديث مقتطفات كثيرة منها تغطي عدداً كبيراً من بنودها كما سيرد خلال البحث. وبذلك يتبين أن الحكم بوضع الوثيقة مجازفة، ولكن الوثيقة لا ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة، فابن إسحاق في سيرته رواها دون إسناد مما يجعل روايته ضعيفة وأوردها البيهقي من طريق آخر تصلح أساساً للدراسة التاريخية التي لا تتطلب درجة الصحة التي تقتضيها الأحكام الشرعية، خاصة أن الوثيقة وردت من طرق عديدة تتضافر في إكسابها القوة، كما أن الزهري علم كبير من الرواد الأوائل في كتابة السيرة النبوية. ثم إن أهم كتب السيرة ومصادر التاريخ ذكرت موادعة النبي ﷺ لليهود وكتابته بينه وبينهم كتاباً[1]. كما ذكرت كتابته المهاجرين والأنصار أيضاً.

كذلك فإن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها «فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ ثم قل استعمالها فيما بعد حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فرداً أو جماعة، أو تخص أحداً بالإطراء أو الذم؛ لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة». ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ الأخرى يعطيها توثيقاً آخر.

السيرة النبوية الصحيحة: [١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٥].

(١) يراجع للمقارنة كتاب «مجموعة الوثائق السياسية».

المؤاخاة
بين المهاجرين والأنصار

قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال]. ألّف الله بين قلوب المسلمين، فأصبح الإسلام أقوى رابطة تربط بينهم. فأصبحت أخوة الدين أقوى من أخوة النسب. وحين تتآلف القلوب؛ فهذا أقوى رباط؛ لأن كل عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة في القلب.

إن القلب هو مصدر النية التي يتبعها السلوك، فالذي يثير إنساناً ضدك إنما هو القلب، فإن وجدت إنساناً يعبس في وجهك، فافهم أن في قلبه شيئاً من ناحيتك.

فالقلب هو الينبوع لكل المشاعر، ولذلك نرى الإنسان يُضحّي بكل شيء في سبيل ما آمن به واعتقده. والتأليف بين القلوب هو جماع التواد والمساندة، والرسول ﷺ يقول في الحديث الذي يرويه عنه النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

ولم تكن المسألة في تأليف القلوب مسألة احتياج إلى مال؛ لأن المال لا يمكن أن يعطي الحب الحقيقي، ولذلك فهناك بين الناس ارتباط مصالح، وارتباط عقيدة مستقرة في القلوب، وارتباط المصالح ينتهي بمجرد أن تهتز أو تنتهي هذه المصالح، لكن ارتباط العقيدة تزيده الأزمات قوة وصلابة، وأنت لا تستطيع أن تجعل إنساناً يحبك مهما أعطيته من مال؛ لأن الحب الحقيقي لا يشترى ولا يباع، إنما يشتري النفاق والتظاهر، والمؤمنون الذين ألّف الله بين قلوبهم لم يكن يهمهم المال بقدر ما يهمهم نصرة دين الله الذي آمنوا به، ونصرة رسول الله ﷺ الذي صدقوه.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٥٢] واللفظ له، ومسلم [١٥٩٩/١٠٧].

والرسول ﷺ يعلم أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كما شاء[١]؛ لذا كان أكثر دعائه ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك»[٢].

فكان صلوات الله وسلامه عليه من أول الأعمال التي قام بها بعد استقراره بالمدينة المنورة أن آخى بين المهاجرين والأنصار حتى إن المهاجر كان يرث الأنصاري بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم إلى أن نزلت آية المواريث، فأبطلت ذلك وكان من الفوائد العظيمة لهذه الأخوة الإيمانية إزالة الوحشة والغربة عن المهاجرين نتيجة مفارقتهم الأهل والعشيرة[٣].

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء».

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي [٣٥٢٢] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها، وقال: حديث حسن. وقال الألباني في صحيح الترمذي [٢٨٢١]: حسن صحيح.

(٣) جاء في صحيح البخاري: باب «كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه»؟

وقال عبد الرحمن بن عوف: «آخى النبي ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع لما قدمنا المدينة».

وقال أبو جحيفة: «آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء».

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق. فربح شيئاً من أقط وسمن، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة.

فقال النبي ﷺ: «مهيم يا عبد الرحمن»؟.

قال: يارسول الله، تزوجت امرأة من الأنصار.

قال: «فما سقت فيها»؟

فقال: وزن نواة من ذهب.

فقال النبي ﷺ: «أولم ولو بشاة»[١].

وقال الحافظ في الفتح: قال ابن عبد البر: كانت المؤاخاة مرتين: مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار فهي المقصودة هنا. وذكر ابن سعد بأسانيد الواقدي إلى جماعة من التابعين قالوا: لما قدم النبي ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين، وآخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة، وكانوا يتوارثون، وكانوا تسعين نفساً بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار.

وقيل: كانوا مائة، فلما نزل: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ﴾ الأنفال: ٧٥ بطلت المواريث بينهم بتلك المؤاخاة. =

---

(١) أخرجه البخاري [٣٩٣٧].

= قلت: وسيأتي في الفرائض من حديث ابن عباس «لما قدموا المدينة كان يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم، فنزلت»[1].

قال السهيلي: آخى بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل المواريث، وجعل المؤمنين كلهم إخوة وأنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] يعني في التوادد وشمول الدعوة، واختلفوا في ابتدائها.

فقيل: بعد الهجرة بخمسة أشهر. وقيل: بتسعة، وقيل: وهو ببني المسجد، وقيل: قبل بنائه، وقيل: بسنة وثلاثة أشهر قبل بدر.

وعند أبي سعيد في «شرف المصطفى» كان الإخاء بينهم في المسجد، وذكر محمد بن إسحاق المؤاخاة فقال: «قال رسول الله ﷺ لأصحابه بعد أن هاجر: تآخوا أخوين، فكان هو وعلي أخوين، وحمزة وزيد بن حارثة أخوين، وجعفر ابن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين» وتعقبه ابن هشام بأن جعفراً كان يومئذ بالحبشة، وفي هذا نظر ووجهها العماد ابن كثير بأنه أرصده لأخونه حتى يقدم، وفي تفسير سنيد: آخى بين معاذ وابن مسعود، وأبو بكر وخارجة بن زيد أخوين، وعمر وعتبان بن مالك أخوين، وقد تقدم في أوائل الصلاة قول عمر: «كان لي أخ من الأنصار» وفسر بعتبان، ويمكن أن يكون أخونه له تراخت كما في أبي الدرداء وسلمان. ومصعب بن عمير وأبو أيوب أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين، ويقال: بل عمار وثابت بن قيس لأن حذيفة إنما أسلم زمان أحد، وأبو ذر والمنذر بن عمرو أخوين، وتعقب بأن أبا ذر تأخرت هجرته، والجواب كما في جعفر، وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين وسلمان وأبو الدرداء أخوين، وتعقب بأن سلمان تأخر إسلامه وكذا أبو الدرداء، والجواب ما تقدم في جعفر.

وكان ابتداء المؤاخاة أوائل قدومه المدينة، واستمر يجددها بحسب من يدخل في الإسلام أو يحضر إلى المدينة، والإخاء بين سلمان وأبي الدرداء صحيح كما في الباب وعند ابن سعد: وآخى بين أبي الدرداء وعوف بن مالك وسنده ضعيف، والمعتمد ما في الصحيح، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع مذكور في هذا الباب، وسمى ابن عبد البر جماعة آخرين.

وأنكر ابن تيمية في كتاب الرد على ابن المطهر الرافضي المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبي ﷺ لعلي قال: لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم ولتأليف قلوب بعضهم، فلا معنى لمؤاخاة النبي لأحد منهم ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري، وهذا =

(١) أخرجه البخاري [٦٧٤٧] عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣] قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاري المهاجري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ قال: نسختها: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

= رد للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة؛ لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوي فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلي لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمر، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة لأن زيداً مولاهم فقد ثبت أخوتهما وهما من المهاجرين، وسيأتي في عمرة القضاء قول زيد بن حارثة: إن بنت حمزة بنت أخي، وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن عن أبي الشعثاء عن ابن عباس «آخى النبي ﷺ بين الزبير وابن مسعود»[1] وهما من المهاجرين. قلت: وأخرجه الضياء في المختارة من المعجم الكبير للطبراني؛ وابن تيمية يصرح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرك، وقصة المؤاخاة الأولى أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر «آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان» وذكر جماعة قال: فقال علي: يا رسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخي؟ قال: «أنا أخوك» وإذا انضم هذا إلى ما تقدم تقوى به. قوله: «وقال عبد الرحمن بن عوف: آخى النبي ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع. هو طرف من حديث تقدم موصولاً في أوائل البيوع من طريق إبراهيم بن سعد عن أبيه وهو سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن جده قال: «قال عبد الرحمن بن عوف لما قدمنا المدينة آخى النبي ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد: إني أكثر الأنصار مالاً فأقاسمك مالي» الحديث[2]، وظن الشيخ عماد الدين بن كثير أن البخاري أشار بهذا التعليق إلى حديث أنس فقال: قصة عبد الرحمن لا تعرف مسندة عنه، وإنما أسندها البخاري وغيره عن أنس، قال: فلعل البخاري أراد أن أنساً حملها عن عبد الرحمن بن عوف. انتهى. والذي ادعاه مردود لثبوته في الصحيح.

قوله: «وقال أبو جحيفة آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء» هو طرف من حديث وصله بتمامه في كتاب الصيام، والغرض منه التنبيه على تسمية من وقع الإخاء بينهم من المهاجرين والأنصار، فذكر هذا والذي بعده من إخاء سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، ولمسلم من طريق ثابت عن أنس «آخى النبي ﷺ بين أبي طلحة وأبي عبيدة»[3] وتقدم في الإيمان حديث عمر «كان لي أخ من الأنصار وكنا نتناوب النزول» وذكر ابن إسحاق أنه عتبان بن مالك، وكان أبو بكر الصديق وحارثة بن زيد أخوين فيما ذكره ابن إسحاق أيضاً.

فتح الباري [٧/ ٦٨٩ ـ ٦٩١] بتصرف.

وقال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس ابن مالك. -

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك [٣/ ٣١٤] وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري [٢٠٤٨].

(٣) أخرجه مسلم [٢٥٢٨].

= وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة.

وقد قيل: إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية، واتخذ فيها علياً أخاً لنفسه[1] والثبت الأول، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام، وأخوة الدار، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار، ولو آخى بين المهاجرين، كان أحق الناس بأخوته أحب الخلق إليه ورفيقه في الهجرة، وأنيسه في الغار، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق، وقد قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل» وفي لفظ «ولكن أخي وصاحبي»[2] وهذه الأخوة في الإسلام وإن كانت عامة، كما قال: «وددت أن قد رأينا إخواننا قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني»[3] فللصديق من هذه الأخوة أعلى مراتبها، كما له من الصحبة أعلى مراتبها، فالصحابة لهم الأخوة، ومزية الصحبة، ولأتباعه بعدهم الأخوة دون الصحبة.

زاد المعاد: [٣/ ٦٣ ـ ٦٥].

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه فجاء عليٌ تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تواخ بيني وبين أحد فقال له رسول الله ﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة». أخرجه الترمذي [٣٧٢٠] وقال: حديث حسن غريب. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [٧٧٢].

(٢) أخرجه البخاري [٣٦٥٧] بلفظ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذته خليلاً ولكن أخوة الإسلام أفضل».

وأخرج أيضاً [٣٦٥٦] عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي».

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم [٣٩/ ٢٤٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: أتى رسول الله ﷺ المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. وددت أنا قد رأينا إخواننا».

قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟

قال: «أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد...

تغيير القبلة

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة].

من المعلوم أن ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق، و﴿نَرَىٰ﴾: فعل مضارع، مما يدل على أن الحدث في زمن التكلم، الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله ﷺ أنه يحب ويشتاق أن يتجه إلى الكعبة بدلاً من بيت المقدس، وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحي من السماء، فكأنه ﷺ كان يتجه ببصره إلى السماء مكان نزول الوحي، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقاً بأن يأتيه الوحي بتغيير القبلة، فكأن هذا أمر قد شغله[1].

---

(١) قال ابن القيم: كان النبي ﷺ يصلي إلى قبلة بيت المقدس، ويحب أن يُصرف إلى الكعبة، وقال لجبريل: «وددت أن يصرف الله وجهي عن قبلة اليهود». فقال: إنما أنا عبد فادع ربك، واسأله. فجعل يقلب وجهه في السماء يرجو ذلك حتى أنزل الله عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وذلك بعد ستة عشر شهراً من مقدمه المدينة قبل وقعة بدر بشهرين[1].

قال محمد بن سعد: أخبرنا هاشم بن القاسم، قال: أنبأنا أبو معشر عن محمد ابن كعب القرظي قال: ما خالف نبي نبياً قط في قبلة، ولا في سنة إلا أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم المدينة ستة عشر شهراً، ثم قرأ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[2] [الشورى: ٣١]. وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم تحويلها إلى الكعبة حكم عظيمة، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين.

فأما المسلمون، فقالوا: سمعنا وأطعنا وقالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ ۖ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشركون، فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/ ٢٤١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/ ٢٤٣].

إن اللّه سبحانه يخبر رسوله ﷺ بأنه قد رأى تقلب وجهه في السماء،

= وأما اليهود، فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبياً، لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء.
وأما المنافقون، فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقاً، فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق، فقد كان على باطل، وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال اللّه تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣] وكانت محنة من اللّه امتحن بها عباده؛ ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه.
ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً، وطّأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه، وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله، ثم عقّب ذلك بالتوبيخ لمن تعنّت رسول اللّه ﷺ، ولم ينقد له، ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى، وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذّر عباده المؤمنين من موافقتهم، واتباع أهوائهم، ثم ذكر كفرهم وشركهم به.
وقولهم: إن له ولداً، سبحانه وتعالى عما يقولو علواً، ثم أخبر أن له المشرق والمغرب، وأينما يولّ عباده وجوههم، فثمّ وجهه، وهو الواسع العليم، فلعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجه العبد، فثم وجه اللّه.
ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه، ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، وأنه إن فعل ـ وقد أعاذه اللّه من ذلك ـ فما له من اللّه من ولي ولا نصير.
ثم ذكّر أهل الكتاب بنعمته عليهم، وخوفهم من بأسه يوم القيامة، ثم ذكر خليله باني بيته الحرام، وأثنى عليه ومدحه وأخبر أنه جعله إماماً للناس، يأتم به أهل الأرض، ثم ذكر بيته الحرام، وبناء خليله له، وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس، فكذلك البيت الذي بناه إمام لهم، ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس، ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم، ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم، وإلى سائر النبيين، ثم رد على من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هوداً أو نصارى، وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة، ومع هذا كله، فقد كبر ذلك على الناس إلا من هدى اللّه منهم، وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة، بعد ثالثة، وأمر به رسوله حيثما كان، ومن حيث خرج، وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم هو الذي هداهم إلى هذه القبلة، وأنها هي القبلة التي تليق بهم، وهم أهلها؛ لأنها أوسط القبل وأفضلها، وهم أوسط الأمم وخيارهم، فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم، كما اختار لهم أفضل الرسل، وأفضل الكتب، وأخرجهم في خير القرون، وخصهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، وأسكنهم خير الأرض، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل، وموقفهم في القيامة خير المواقف، فهم على تل عالٍ، والناس تحتهم، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء، واللّه ذو الفضل العظيم. وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك؛ لئلا يكون للناس عليهم حجة، ولكن الظالمين الباغين يحتجون عليهم بتلك الحجج التي ذُكرت، ولا يعارض الملحدون الرسل إلا بها وبأمثالها من =

وأجابه ليتجه إلى القبلة التي يرضاها، فهل معنى ذلك أن القبلة التي كان عليها الرسول ﷺ وهي بيت المقدس لم يكن راضياً عنها؟ نقول لا.. وإنما الرضا دائماً يتعلق بالعاطفة، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل؛ ولذلك لا يقول أحد: إن رسول الله ﷺ لم يكن راضياً عن قبلة بيت المقدس، وإنما يتجه إلى بيت المقدس، وفي قلبه رغبة ليتجه إلى الكعبة، هذا يدل على الطاعة والالتزام.

الله تعالى يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي: تحبها بعاطفتك، ورسول الله ﷺ كان يتطلع إلى هذا التغيير، فكأن عواطفه ﷺ اتجهت لتضع مقدمات التحويل.

وقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ المراد بالوجه: هو الذات كلها. وكلمة: ﴿شَطْرَ﴾ معناها الجهة، والشطر معناه النصف، وكلا المعنيين صحيح.

= الحجج الداحضة، وكل من قدّم على أقوال الرسل سواها، فحجته من جنس حجج هؤلاء.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك ليتم نعمته عليهم، وليهديهم، ثم ذكرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم، ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم أمرهم بذكره وبشكره، إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه، والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبته لهم، ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به، وهو الصبر والصلاة، وأخبرهم أنه مع الصابرين.

وأتم نعمته عليهم مع القبلة بأن شرع لهم الأذان في اليوم والليلة خمس مرات، وزادهم في الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية[1]، فكل هذا كان بعد مقدمه المدينة.

زاد المعاد [٣/ ٦٦ ـ ٦٩] بتصرف.

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر».

أخرجه البخاري [١٠٩٠]، ومسلم [٥٨٦/ ١].

وعنها رضي الله عنها قالت: «فرضت الصلاة ركعتين ثم هاجر النبي ﷺ ففُرضت أربعاً وتُركت صلاة السفر على الأولى».

أخرجه البخاري [٣٩٣٥].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة».

أخرجه مسلم [٧٨٦/ ٥]، وأبو داود [١٢٤٧]، والنسائي في المجتبى [١٦٩/ ٣]، وابن ماجه [١٠٦٨].

إذن.. الذي يقول الشطر هو النصف صحيح، والذي يقول إن الشطر هو الجهة صحيح.

إذن.. قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ أي اتجه جهة المسجد. وفي الزمن الماضي كانت العبادات تتم في أماكن خاصة، إلى أن جاء رسول الله ﷺ فجعل الله تعالى له الأرض كلها مسجداً وطهوراً[١].

إن المسجد هو مكان السجود؛ ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله تعالى؛ فسُمي المكان الذي نصلي فيه مسجداً، ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصوراً على الصلاة لله تعالى، ولا تزاول فيه شيئاً آخر. المسجد مخصص للصلاة والعبادة، أما المكان الذي تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه، والكعبة بيت الله سبحانه باختيار الله[٢]، وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله تعالى؛ ولذلك كان

---

(١) عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

أخرجه البخاري [٣٣٥] واللفظ له، ومسلم [٣/١٥٢].

وعن حذيفة قال: قال رسول الله: «فُضلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجُعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء».

أخرجه مسلم [٤/٥٢١].

وقال الإمام النووي: وقوله ﷺ: «مسجداً» معناه: أن من كان قبلنا إنما أبيح لهم الصلوات في مواضع مخصوصة كالبيع والكنائس. قال القاضي رحمه الله تعالى: وقيل: إن من كان قبلنا كانوا لا يصلون إلا فيما تيقنوا طهارته من الأرض، وخصصنا نحن بجواز الصلاة في جميع الأرض إلا ما تيقنا نجاسته.

شرح النووي على مسلم [٣/٩].

(٢) عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه».

أخرجه البخاري [٣٣٦٦] واللفظ له، ومسلم [٥٢٠].

وروى البيهقي في الدلائل عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعث الله تعالى جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما: ابنيا لي بيتاً. فخط لهما جبريل، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء ونودي من تحته: حسبك يا آدم. فلما بناه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به، وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت وضع، ثم =

بيت الله تعالى باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ يعني أينما كنتم ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ لأن الآية نزلت وهم في مسجد بني سلمة بالمدينة، فتحول المسلمون إلى المسجد الحرام، وحتى لا يعتقد أحد أن التحويل في هذا المسجد فقط وفي الوقت الذي نزلت فيه الآية فقط، قال الله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي إن الذين أوتوا الكتاب يحاولون التشكيك في اتباع رسول الله ﷺ؛ إنهم يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التي ذكرت في التوراة والإنجيل، ويعلمون أنه صاحب القبلتين. لو لم يتجه الرسول ﷺ من بيت المقدس إلى الكعبة، لقالوا: إن التوراة والإنجيل يقولان: إن الرسول الخاتم يصلي إلى قبلتين فلماذا لم تتحقق؟ ولكان هذا أدعى إلى التشكيك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يخبر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر، فموقفهم ليس لصلب الحجة، ولكن للمكابرة؛ فهم لا يريدون حجة ولا دليلاً إيمانياً، ولكنهم يريدون المكابرة[1].

= تناسخت القرون حتى حجه نوح، ثم تناسخت القرون، حتى رفع إبراهيم القواعد من البيت.

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير والطبراني موقوفاً. وزادوا: زعم الناس أن آدم بناه من خمسة أجبل: من حراء ولبنان وطور زيتا وطور سيناء والجودي.

وذكر الحديث المتقي الهندي في كنز العمال برقم [٣٤٧١٨]، وعزاه للبيهقي وابن عساكر. قال: وقال البيهقي: تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً.

وانظر سبل الهدى والرشاد [١/ ١٧١].

(١) قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

قال العلماء: هذه الآية مقدمة في النزول على قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] ومعنى: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾: تحول وجهك إلى السماء؛ قاله الطبري. الزجاج: تقلب عينيك في النظر إلى السماء؛ والمعنى متقارب. وخص السماء بالذكر؛ إذ هي مختصة بتعظيم ما أضيف إليها ويعود منها، كالمطر والرحمة والوحي. ومعنى: ﴿تَرْضَىٰهَا﴾ تحبها. قال السدي: كان إذا صلى نحو بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء =

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا

= ينظر ما يؤمر به، وكان يحب أن يصلي إلى قبل الكعبة فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾. وروى أبو إسحاق عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وقد كان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه نحو الكعبة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿فَوَلِّ﴾ أمر ﴿وَجْهَكَ شَطْرَ﴾ أي ناحية ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني الكعبة، ولا خلاف في هذا.

قيل: حيال البيت كله؛ عن ابن عباس.

وقال ابن عمر: حيال الميزاب من الكعبة؛ قاله ابن عطية.

والميزاب: هو قبلة المدينة وأهل الشام، وهناك قبلة أهل الأندلس.

قلت: قد روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما رسول الله ﷺ قال: «البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي»[2].

الثانية: قوله تعالى: ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الشطر له محامل: يكون الناحية والجهة، كما في هذه الآية، وهو ظرف مكان؛ كما تقول: تلقاءه وجهته وانتصب الظرف؛ لأنه فضلة بمنزلة المفعول به، وأيضاً فإن الفعل واقع فيه. وقال داود بن أبي هند: إن في حرف ابن مسعود «فول وجهك تلقاء المسجد الحرام».

وشطر الشيء: نصفه؛ ومنه الحديث: «الطهور شطر الإيمان»[3]. ويكون من الأضداد، يقال: شطر إلى كذا إذا أقبل نحوه، وشطر عن كذا إذا أبعد منه وأعرض عنه. فأما الشاطر =

(١) أخرجه البخاري [٤٠، ٤٤٨٦] عن البراء: أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده ـ أو قال أخواله ـ من الأنصار، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلّى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة، فداروا ـ كما هم ـ قبل البيت. وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولي وجهه قبل البيت أنكروا ذلك.
قال زهير: حدثنا أبو إسحاق عن البراء في حديثه هذا أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا، فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى [٢٢٣٤] وقال: تفرد به عمر بن حفص المكي وهو ضعيف لا يحتج به. ورُوي بإسناد آخر ضعيف عن عبد الله بن حبشي كذلك مرفوعاً، ولا يحتج بمثله. والله أعلم.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٢٣]، والترمذي [٣٥١٧] عن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه.

أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ

= من الرجال فلأنه قد أخذ في نحو غير الاستواء، وهو الذي أعيا أهله خبثاً؛ وقد شطر وشطر ـ بالضم ـ شطارة فيهما. وسئل بعضهم عن الشاطر فقال: هو من أخذ في البعد عما نهى الله تعالى عنه.

الثالثة: لا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة في كل أفق، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له، وعليه إعادة كل ما صلى؛ ذكره أبو عمر.

وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها؛ فإن خفيت عليه فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها. ومن جلس في المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر إليها إيماناً واحتساباً، فإنه يُروى أن النظر إلى الكعبة عبادة؛ قاله عطاء ومجاهد.

الرابعة: واختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين أو الجهة؛ فمنهم من قال بالأول. قال ابن العربي: وهو ضعيف؛ لأنه تكليف لما لا يصل إليه. ومنهم من قال بالجهة؛ وهو الصحيح لثلاثة أوجه:

الأول: أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف.

والثاني: أنه المأمور به في القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

الثالث: أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يعلم قطعاً أنه أضعاف عرض البيت.

الخامسة: في هذه الآية حجة واضحة لما ذهب إليه مالك ومن وافقه في أن المصلي حكمه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده. وقال الثوري وأبو حنيفة والشافعي والحسن بن حي: يستحب أن يكون نظره إلى موضع سجوده. وقال شريك القاضي: ينظر في القيام إلى موضع السجود، وفي الركوع إلى موضع قدميه، وفي السجود إلى موضع أنفه، وفي القعود إلى حجره.

قال ابن العربي: إنما ينظر أمامه؛ فإنه إن حنى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليه في الرأس وهو أشرف الأعضاء، وإن أقام رأسه وتكلف النظر ببصره إلى الأرض. فتلك مشقة عظيمة وحرج، وما جعل علينا في الدين من حرج؛ أما إن ذلك أفضل لمن قدر عليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يريد اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني تحويل القبلة من بيت المقدس. فإن قيل: كيف يعلمون ذلك وليس من دينهم ولا في كتابهم؟ قيل عنه جوابان:

أحدهما: أنهم لما علموا من كتابهم أن محمداً ﷺ نبي، علموا أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا به.

الثاني: أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بعضهم؛ فصاروا عالمين بجواز القبلة.

ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [البقرة].

ساعة تسمع: ﴿وَلَئِنِ﴾ واو ولام وإن، هذا قسم، فكأن الحق تبارك وتعالى أقسم أنه لو أتى رسول الله ﷺ أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه، ولا اتبعوا قبلته.. لماذا؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد، ولو كانوا يريدون دليلاً أو اقتناعاً لوجدوه في كتبهم التي أنبأتهم عن رسول الله ﷺ، وأنه النبي الخاتم وأعطتهم أوصافه، فالدليل عندهم ولكنهم يأخذون الأمر سفهاً وعناداً ومكابرة وحسداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، فكأنه حين جاءت الآية بتغيير القبلة أعلمنا الله أن المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلى الاتجاه نحو بيت المقدس، ولن يحولهم الله إلى جهة ثالثة، ولكي يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون في جانب، والمسلمون في جانب آخر، وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم قال سبحانه: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، فالخلاف في القبلة مستمر إلى يوم القيامة.

وقول الحق: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، حين يخاطب الله سبحانه رسوله وحبيبه محمداً ﷺ بهذه الآية، وهو يعلم أن محمداً الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم. نقول: إن المقصود بهذه الآية هي أمة محمد ﷺ.

إن الله يخاطب أمته في شخصه ﷺ قائلاً: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولكن ما هي أهواء أهل الكتاب؟ هي أن يهادنهم رسول الله ﷺ، أو يقول: إن ما حرفوه في كتبهم أنزله الله، وكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعاً، فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد ﷺ إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب، وما حرفوه سيكون من الظالمين، وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقبل هذا من رسوله وحبيبه، فكيف يقبله من أي فرد من أمة محمد ﷺ؟

= قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة الكسائي «تعلمون» بالتاء على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد ﷺ. وعلى الوجهين فهو إعلام بأن الله تعالى لا يهمل أعمال العباد ولا يغفل عنها، وضمنه الوعيد. وقرأ الباقون بالياء من تحت.
تفسير القرطبي [٢/ ١٥٨/ ١٦١] بتصرف.

إن الخطاب هنا يمس قمة من قمم الإيمان التي تفسد العقيدة كلها، والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أنه لا يتسامح فيها ولا يقبلها، حتى لو حدثت من رسوله ﷺ ولو أنها لن تحدث، ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماماً من الله على أي مستوى من مستويات الإيمان، حتى في مستوى القمة؛ فلتبتعد الأمة المسلمة عن مثل هذا الفعل تماماً.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

والله تبارك وتعالى يقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله ﷺ يعرفونه، ما الذي يعرفونه هل يعرفون أمر تحويل القبلة؟ أم يعرفون أمر رسول الله ﷺ وبعثه ورسالته التي يحاولون أن يشككوا فيها؟ الله سبحانه وتعالى يبين لنا ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة].

فكأن اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد ﷺ، ومكتوب في التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به. إن عبد الله بن سلام كان جالساً وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان موجوداً، فسأله عمر: أكنتم تعرفونه يا ابن سلام؟ ـ أي: أكنتم تعرفون محمداً ﷺ وأوصافه؟ ـ فقال ابن سلام ـ وكان من أحبار اليهود ـ أعرفه كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمد أشد. فلما سألوه: لماذا؟ قال: لأن ابني أخاف أن تكون امرأتي خانتني فيه، أما محمد ﷺ فأوصافه مذكورة بالدقة في التوراة بحيث لا نخطئه[1].

---

(١) عن ابن عباس قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد الله ابن سلام: قد أنزل الله على نبيه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ ﴾ فكيف يا عبد الله هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني إذا رأيته مع الصبيان، وأنا أشد معرفة بمحمد مني بابني. فقال عمر: كيف ذلك؟ قال: إنه رسول الله حق من الله، وقد نعته الله في كتابنا ولا أدري ما تصنع النساء. فقال له عمر: وفقك الله يا ابن سلام».

الدر المنثور [١/ ٣٥٧].

وأخرج البخاري [٣٩١١] في حديث الهجرة الطويل عن أنس بن مالك: فلما جاء نبي الله ﷺ، جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن =

إذن.. فأهل الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ ويعرفون زمن مبعثه ورسالته.. والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع، أما الذين لم يؤمنوا، وكفروا بما جاء به رسول الله ﷺ عرفوا، ولكنهم كتموا ما يعرفونه، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وساعة تقول: كتم الشيء فكأن الشيء بطبيعته كان يجب أن يبرز وينتشر. والحق بطبيعته لا بد أن يبرز وينتشر، ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلى مجهود.

إن الذين يحققون في القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق. فيجعلون من يحققون معه لا ينام حتى تنهار قواه فينطق بالحقيقة؛ لأن النطق بالحق لا يحتاج إلى مجهود، أما كتم الحق فهو الذي يحتاج إلى مجهود وقوة، وعدم النطق بالحق عملية شاقة، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة، والحق من الله فهل يستطيع هؤلاء كتمانه؟ بالطبع لا، لا بد أن يظهر. فإذا انتشر الكذب والباطل فهو كالألم الذي يحدث في الجسد. الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء؛ لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئاً أصابه مرض؛ فتتجه إليه بأسباب الشفاء.

إن أخطر الأمراض هي التي لا يصاحبها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد مضى وقت العلاج.. والحق دائماً غالب على أمره؛ ولذلك لا توجد معركة بين حقين. أما على الناحية الأخرى فتوجد معركة بين باطل وباطل، وبين حق وباطل؛ لأنه لا يوجد إلا حق واحد أما الباطل فكثير.

والمعارك بين الحق والباطل تنتهي بهزيمة الباطل بسرعة، ولكن الذي يطول هو معركة بين باطلين.

= يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا في ما ليس في. فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق، فأسلموا». قالوا: ما نعلمه ـ قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاث مرات ـ قال: «فأي رجل فيكم عبد الله ابن سلام»؟ قالوا: ذاك سيدنا، وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: «أفرأيتم إن أسلم»؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم. قال: «أفرأيتم إن أسلم»؟ قالوا حاشا لله ما كان ليسلم. قال: «أفرأيتم إن أسلم»؟ قالوا حاشا لله ما كان ليسلم. قال: «يا ابن سلام اخرج عليهم». فخرج، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق. فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾، الحق من الله سبحانه وتعالى، وما دام من الله فلا تكونن من الذين يشكون أن الحق سينتصر، ولكن الحق لا بد له من قوة تحميه. وكما يقول الشاعر:

السيف إن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا في يدي بطل

فما فائدة أن يكون معك سيف بتار، دون أن توجد اليد القوية التي ستضرب به؟ ونحن غالباً نكون مضيعين للحق؛ لأننا لا نوفر له القوة التي ينتصر بها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ..﴾ الممتري هو الذي يشك في حدوث الشيء. الشك معناه أنه ليست هناك نسبة تتغلب عليه أي: أنَّ الاحتمالين متساويان، ولكن الحق من الله ولا توجد نسبة تقابله؛ ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل في جدل عقيم حول انتصار الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة].

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً، ومن هنا فإن له الاختيار في أن يؤمن أو لا يؤمن، أن ينصر الحق أو ينصر الباطل، أن يفعل الخير أو يفعل الشر. كل هذه اختيارات شاء الله أن يعطيها للإنسان في الدنيا؛ بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل، وهذا الاختيار موجود في الحياة الدنيا فقط.

أما ساعة الاحتضار يصبح الإنسان مقهوراً وليس مختاراً؛ فهو لا يملك شيئاً لنفسه ولا يستطيع أن يقول: لن أموت الآن.

ففي الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التي يتجه إليها، هذا يختار الكفر، وهذا يختار الإيمان، هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية، فما دام للإنسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر والذي يهديه الله يتجه إلى فعل الخيرات وكأنه يتسابق إليها.. لماذا؟ لأنه لا يعرف متى يموت؛ ولذلك كلما تسابق إلى خير، كان ذلك حسنة أضافها لرصيده.

إن المطلوب من المؤمنين في الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى فعل الخيرات

قبل أن يأتيهم الأجل، ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله؛ لأنه كما يقول عز وجل: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: أنه ليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى؛ بل هو يعرف أماكنكم جميعاً واحداً واحداً وسيأتي بكم جميعاً؛ مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف].

وقوله سبحانه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات] أي أن الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقيناً أننا لا نستطيع أن نفر من علمه. ولا من قدره ولا من عذابه، وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله، وأنه لا منجاة من الله إلا إليه؛ ولذلك لا يظن كافر أو عاصٍ أنه سيفلت من الله، ولا يظن أنه لن يكون موجوداً يوم القيامة، أو أنه لن يحاسب، أو أنه يستطيع أن يختفي.

إن غرور الدنيا قد يصيب بعض الناس فيظنون أنهم في منعة من الله، وأنهم لن يلاقوه. نقول لهم: ستفاجؤون في الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق والجنة حق والنار حق، ستفاجؤون بما سيحدث لكم، ومن لم يؤمن، ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزي والعذاب الأليم. إن الله ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع في الخيرات لننجوا من عذابه، ويقول لنا: لن يفلت واحد منكم ـ ولا ذرة من ذرات جسده ـ من الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى للحساب؛ ولذلك ختم الله عز وجل هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن طاعته شيء، إنه سبحانه على كل شيء قدير.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [البقرة].

لا بد أن نتأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة؟ أكدها ثلاث مرات متقاربة؛ لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة في نفوس المؤمنين، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيداً إيمانياً.

لقد جاء بثلاث آيات التي هي أقل الجمع. واحدة للمتجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد. والثانية للمتَّجه وهو خارج المسجد. والثالثة للمتَّجه من الجهات جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. هو رد على

المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك في الإسلام، بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة، على أساس أنها قضية ما كان يجب أن تتم؛ لأنه ليس فيها زيادة في التكليف، ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن، فالجهد الذي يبذله المؤمن في الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذي يبذله في الاتجاه إلى البيت الحرام، فأنت إذا اتجهت في صلاتك يميناً أو شمالاً أو شرقاً أو غرباً، فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة؛ فما هو سبب التغيير؟

نقول لهم: إن هذه ليس حجة للتشكيك في تحويل القبلة؛ لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة لأمر الله، وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية، يقول المولى جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: أن ما فعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى؛ والله عز وجل ليس غافلاً عن عملكم، بحيث تكونون قد اتجهتم إلى البيت الحرام؛ بل إنَّ الله يعلم ما تبدون وما تكتمون فاطمئنوا أنكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام، واعلموا أن الله سبحانه محيط بكم في كل ما تعملون.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة].

الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله ﷺ أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام، سواء كانوا في المدينة أو في خارج المدينة، أو في أي مكان على الأرض، وتلك قبلتهم في كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذي يصلون فيه[1].

---

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ يعني بذلك أهل الأديان، يقول: لكل قبيلة قبلة يرضونها، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون. وقال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة. وقال مجاهد في الرواية الأخرى والحسن: لكن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر «ولكل وجهة هو مولاها» وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٤٨]، وقال ههنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ =

وقوله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾. الناس هنا المقصود بهم

= يَكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٤٨] أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [البقرة].

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض. وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات. فقيل: تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره. وقيل: بل هو منزل على أحوال.

الأمر الأول: لمن هو مشاهد الكعبة.

والثاني: لمن هو في مكة غائباً عنها.

والثالث: لمن هو في بقية البلدان. هكذا وجهه فخر الدين الرازي.

وقال القرطبي: الأول: لمن هو بمكة، والثاني: لمن هو في بقية الأمصار، والثالث: لمن خرج في الأسفار. ورجح هذا الجواب القرطبي، وقيل: إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق: فقال أولاً: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٤] فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها. وقال في الأمر الثاني: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ فذكر أنه الحق من الله وارتضاه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرتضيه، وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها، وقيل: غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار. وقد بسطها الرازي وغيره والله أعلم.

وقوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، وهذا أظهر؛ قال أبو العالية: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صرف محمد إلى الكعبة.

وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه، وكان حجتهم على النبي ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا.

تفسير ابن كثير: [١/ ١٨٥] بتصرف.

المنافقون واليهود والنصارى.. حجة في ماذا؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس، فاتجهوا إلى المسجد الحرام، وليس لبيت المقدس قدسية في ذاته، ولا للمسجد الحرام قدسية في ذاته، ولكن نحن نطيع الأمر من الآمر الأعلى وهو الله عز وجل.

إن الله تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة: ﴿ظَلَمُوا﴾ ووصفهم بأنهم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فمن الظالم؟ الظالم هو: من ينكر الحق أو يغير وجهته، أو ينقل الحق إلى الباطل والباطل إلى الحق. والظلم هو تجاوز الحق، وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم قد تجاوزوا الحق وأنكروه؛ يقول سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: لا تخشوا الذين ظلموا: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: أن الخشية لله وحده، والمؤمن لا يخشى بشراً؛ لأنه يعلم أن القوة لله جميعاً؛ ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحداً إلا الحق سبحانه وتعالى.

وقوله سبحانه: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الإيمان وتمام النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان. فإذا هدانا الله للإيمان، فهذا من تمام نعمته علينا، ولكي يكون الإيمان صحيحاً ومقبولاً، فلا بدَّ أن تُؤدى مطالبه، والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا، فلا نجعل التكليف ينقطع؛ لأن التكليف نعمة بغيرها لا تصلح حياتنا، ولا تتوالى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على منهج الله بقوة وحب، وأنت حينما تأتي إلى المنهج قد يكون شاقاً، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة، فإنك ستخشع وتعشق التكليف؛ لأنك تعرف العلم الصالح بثوابه والعمل الطالح بعقابه؛ ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة].

إذن.. الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب، والمعصية بالعقاب والعذاب؛ لأن الذي ينصرف عن الطاعة لمشقتها عزل الطاعة عن الثواب، فأصبحت ثقيلة، والذي يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب، فأصبحت سهلة. فمن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان؛ ولذلك في حجة الوداع نزلت على رسول الله ﷺ الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] وكان ذلك إخباراً بتمام رسالة رسول الله ﷺ بأن

الأحكام التكليفية قد انتهت، ولكن الذين يستثقلون التكليف تجدهم يقولون لك: لقد عمَّ الفساد والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، كأنه يحكم بأن هذا في وسعه، وهذا ليس في وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف. نقول له: أكلف الله أو لم يكلِّف؟ إن كان قد كلف فيكون التكليف في وسعك؛ لأنه سبحانه حين يجد مشقة يأمر بالتخفيف، مثل إباحة: قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار في رمضان للمريض والمسافر، فهو سبحانه قد حدد ما في وسعك[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ..﴾ الهداية هي الطريق المستقيم الموصِّل إلى الغاية وهو أقصر الطرق، غاية هذه الحياة هي أن تصل إلى نعيم الآخرة. إن الله أعطاك في الدنيا الأسباب؛ لتحكم حركة حياتك، ولكن هذه ليست غاية الحياة؛ بل الغاية أن تذهب إلى حياة بلا أسباب.

إذن.. قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: لعلكم تنتبهون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم، ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هي الغاية، أو هي النهاية أو هي الهدف؛ فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالاً أو حراماً باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له. نقول: لا؛ إنه في هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد؛ لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هي في الآخرة، ولعرف أن نعيم الآخرة الذي لا تفوته ولا يفوتك، يجب أن يكون هدفنا في الحياة الدنيا، فنعمل ما نستطيع لنصل إلى النعيم بلا أسباب في الجنة.

❁ ❁ ❁

(١) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

لا هجرة بعد الفتح

علينا أن نعرف نحن الذين نعيش في هذا الزمان أنه لا هجرة بعد الفتح[١]،

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيّة، وإذا استُنفرتم فانفروا».
أخرجه البخاري [٢٧٨٣، ٢٨٢٥]، ومسلم [١٨٦٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها.
قال الحافظ في الفتح: قوله: «لا هجرة بعد الفتح» أي فتح مكة.
قال الخطابي وغيره: كانت الهجرة فرضاً في أول الإسلام على من أسلم؛ لقلة المسلمين بالمدينة وحاجتهم إلى الاجتماع. فلما فتح الله مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً فسقط فرض الهجرة إلى المدينة، وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به أو نزل به عدو. انتهى.
وكانت الحكمة أيضاً في وجوب الهجرة على من أسلم ليسلم من أذى ذويه من الكفار فإنهم كانوا يعذبون من أسلم منهم إلى أن يرجع عن دينه، وفيهم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٧٩] الآية، وهذه الهجرة باقية الحكم في حق من أسلم في دار الكفر وقدر على الخروج منها. وقد روى النسائي من طريق بهز ابن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جده مرفوعاً: «لا يقبل الله من مشرك عملاً بعدما أسلم أو يفارق المشركين»(١).
ولأبي داود من حديث سمرة مرفوعاً: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين»(٢). وهذا محمول على من لم يأمن على دينه.
قوله: «ولكن جهاد ونية» قال الطيبي وغيره: هذا الاستدراك يقتضي مخالفة حكم ما بعده لما قبله، والمعنى: أن الهجرة التي هي مفارقة الوطن التي كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة انقطعت، إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية، وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة كالفرار من دار الكفر، والخروج في طلب العلم، والفرار بالدين من الفتن والنية في جميع ذلك.
قوله: «وإذا استنفرتم فانفروا» قال النووي: يريد أن الخبر الذي انقطع بانقطاع الهجرة =

(١) جزء من حديث رواه النسائي في الكبرى [٢٣٤٩] واللفظ له، وابن ماجه [٢٥٣٦]، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه [٢٠٥٥]، وانظر الصحيحة [٣٦٩].
(٢) جزء من حديث رواه أبو داود [٢٦٤٥]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٢٣٠٤].

إلا إن كانت هجرة يقصد بها صاحبها المعونة على طاعة الله. وهو ما يوضحه قول النبي ﷺ:

= يمكن تحصيله بالجهاد والنية الصالحة، وإذا أمركم الإمام بالخروج إلى الجهاد ونحوه من الأعمال الصالحة فاخرجوا إليه. وقال الطيبي: قوله: «ولكن جهاد» معطوف على محل مدخول «لا هجرة» أي الهجرة من الوطن إما للفرار من الكفار أو إلى الجهاد أو إلى غير ذلك كطلب العلم، فانقطعت الأولى وبقي الأخريان فاغتنموها ولا تقاعدوا عنهما، بل إذا استنفرتم فانفروا.

قلت: وليس الأمر في انقطاع الهجرة من الفرار من الكفار على ما قال، وقد تقدم تحرير ذلك. وقال ابن العربي: الهجرة هي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضاً في عهد النبي ﷺ واستمرت بعده لمن خاف على نفسه، والتي انقطعت أصلاً هي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان.

وفي الحديث بشارة بأن مكة تبقى دار إسلام أبداً. وفيه وجوب تعيين الخروج في الغزو على من عيّنه الإمام، وأن الأعمال تعتبر بالنيات.

تكملة: قال ابن أبي جمرة ما محصله: إن هذا الحديث يمكن تنزيله على أحوال السالك لأنه أولاً يؤمر بهجرة مألوفاته حتى يحصل له الفتح، فإذا لم يحصل له أمر بالجهاد وهو مجاهدة النفس والشيطان مع النية الصالحة في ذلك.

فتح الباري [٦/ ١٢٢، ١٢٣].

وقال النووي: قوله: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة: «لا هجرة ولكن جهاد ونية»، وفي الرواية الأخرى: «لا هجرة بعد الفتح». قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: الهجرة من دار الحرب إلى دار السلام باقية إلى يوم القيامة، وتأولوا هذا الحديث تأويلين:

أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكة؛ لأنها صارت دار إسلام، فلا تتصور منها الهجرة.

والثاني: هو الأصح: أن معناه: أن الهجرة الفاضلة المهمة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازاً ظاهراً انقطعت بفتح مكة، ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة؛ لأن الإسلام قوي وعزّ بعد فتح مكة عزاً ظاهراً بخلاف ما قبله.

قوله ﷺ: «ولكن جهاد ونية» معناه: أن تحصيل الخير بسبب الهجرة قد انقطع بفتح مكة، ولكن حصّلوه بالجهاد والنية الصالحة.

وفي هذا الحث على نية الخير مطلقاً، وأنه يثاب على النية.

قوله ﷺ: «وإذا استنفرتم فانفروا» معناه: إذا طلبكم الإمام للخروج إلى الجهاد فاخرجوا، وهذا دليل على أن الجهاد ليس فرض عين، بل فرض كفاية إذا فعله من تحصل بهم الكفاية سقط الحرج عن الباقين، وإن تركوه كلهم أثموا كلهم، قال أصحابنا: الجهاد اليوم فرض كفاية، إلا أن ينزل الكفار ببلد المسلمين فيتعيّن عليهم الجهاد، فإن لم يكن في أهل ذلك البلد كفاية وجب على من يليهم تتميم الكفاية، وأما في زمن النبي ﷺ فالأصح عند أصحابنا أنه كان أيضاً فرض كفاية. والثاني: أنه كان فرض عين، واحتج القائلون بأنه كان =

= فرض كفاية بأنه كان تغزو السرايا، وفيها بعضهم دون بعض.

شرح النووي على مسلم [٧/ ١٣، ١٤].

وفي تفسير الخازن عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني بالشرك، وقيل بالمقام في دار الشرك، وذلك لأن الله لم يقبل الإسلام من أحد بعد هجرة النبي ﷺ حتى يهاجر إليه ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة، بقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح».

وفي تفسير الخازن أيضاً في سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]، اختلفوا في قوله من بعد فقيل: من بعد صلح الحديبية، وهي الهجرة الثانية. وقيل: من بعد نزول هذه الآية. وقيل: من بعد غزوة بدر، ثم قال: والأصح أن المراد به أهل الهجرة الثانية لأنها بعد الهجرة الأولى، لأن الهجرة الأولى انقطعت بعد فتح مكة لأنها صارت دار الإسلام بعد الفتح. ويدل عليه قوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح».

وقال الحسن: الهجرة غير منقطعة. ثم قال: ويجاب عن هذا بأن المراد من الهجرة المخصوصة، الهجرة من مكة إلى المدينة، فأما من كان من المؤمنين في بلد يخاف على إظهار دينه من الكفار وجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يخاف فيه على إظهار دينه.

تفسير الخازن [٢ ـ ١٩٨].

وقال القسطلاني: ما دام في الدنيا دار الكفر فالهجرة منها واجبة، والحكم يدور مع علته.

إرشاد الساري [٦/ ٣١٢].

ويدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[1].

فإن قلت: هل يصح إسلام من أسلم في بلد الكفر ولم يهاجر؟ قلت: جوابه كما قال النفراوي في الفواكه الدواني شرح الرسالة: لم يبين المصنف حكم من أسلم من الحربيين، هل يجوز لهم البقاء في دار الحرب أو يهاجرون منها إلى بلاد الإسلام؟ وبينه غيره بقوله: ولو أسلم قوم كفار فإن كانوا حيث تنالهم أحكام الكفار وجب عليهم الارتحال منهم، فإن لم يرتحلوا بكونوا عاصين لله ورسوله وإسلامهم صحيح.

الفواكه الدواني [١/ ٥٦٤].

وكما لا يختلف اثنان أن المقيم ببلد الحرب اختياراً عاص لله ورسوله لا يختلفان أيضاً أن شهادته لا تجوز.

وفي المعيار: لا تجوز شهادة الدخن ـ وهو من يسكن ديار الكفر دون عذر ـ وقضاتهم لأنهم رضوا أن يكونوا تحت إيالة النصارى.

وفيه أيضاً سئل المازري عن أحكام تأتي من صقلية من عند قاضيها أو شهود عدول هل =

(١) رواه أبو داود [٩٧٤٢] وقال الألباني في صحيح أبي داود [٦٦١٢]: صحيح.

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[1].

وهناك هجرة باقية لنا وهي المفارقة لأجل الجهاد في سبيل الله، أو الهجرة إلى طلب العلم، أو الهجرة لأن هناك مجالاً للطاعة أكثر، فلنفترض أن هناك مكاناً يُضيق فيه على المؤمنين لدرجة أنهم لا يستطيعون فيها أداء ما افترضه الله عليهم من العبادات كصلاة الجمعة والجماعة مثلاً، فيترك أهل الإيمان هذا المكان فراراً إلى مكان فيه مجال يأخذ فيه المؤمن حرية أداء الفروض الدينية، وكذلك الفرار بالدين من الفتن كل هذه هجرات إلى الله. والنية في هذه الهجرات لا يمكن أن تكون محصورة فقط في طلب سعة العيش. ولذلك لا يصح أن يكون الشغل الشاغل للناس في هذا الزمان هو سعة العيش بل عليهم أن يبحثوا عن صحة الدين وإقامة شعائره[2].

= يقبل ذلك أو لا؟.. ولا ندري إقامتهم هناك تحت أهل الكفر هل هي اضطرار أو اختيار؟ فأجاب:

هذا المقيم ببلد الحرب إن كان اضطراراً فلا شك أنه لا يقدح في عدالته وكذلك إن كان تأويله صحيحاً مثل إقامته، لرجاء هداية أهل الحرب، وأما لو أقام بحكم الجاهلية والإعراض عن التأويل اختياراً فلا شك أنه يقدح في عدالته، من ظهرت عدالته وشك في إقامته على أي وجه، فالأصل عذره، إلا أن تكون قرائن تشهد على أن إقامته كانت اختياراً، وتولية الكافر للقاضي باطلة ومع ذلك لا يقدح في تنفيذ أحكامه إذ حجر الناس بعضهم بعضاً واجب.

وقال القسطلاني: قال الماوردي إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار الإسلام فالإقامة فيها أفضل من الرحلة لما يرجى من دخول غيره في الإسلام.

إرشاد الساري [٦/ ٢١٣].

(١) أخرجه البخاري [٦٤٨٤] عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

أخرجه البخاري [١] عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

قصيدة موكب النور

نظمها الشيخ الإمام في هجرة الرسول ﷺ

أريحي سماح والإيثار ... لك إرث يا طيبة الأنوار
وجلال الجمال فيك عريقٌ ... لا خرمنا ما فيه من أسرار
تجتلي عندك البصائر معنى ... فوق طوق العيون والأبصار
ومن الحسن ما يضيق به الحسن ... وعن فاقد الهوى متوارى
قد حضنت الهدى حنوناً فألقى ... فيك إشعاعه عصا التسيار
هتف الحق في سماء الفيافى ... أحنَّ يا ليل في ضميرك سارى
حضنتْ ركبه العناية فانساب ... منيع الجناب كالإعصار
والذي حاطه الإله بعين ... كان في غُنية عن الأستار
قل لطلابه طلبتم عزيزاً ... يتهادى في قبضة الجبار
هل رأيتم فتى الفداء عليّاً ... كيف يحتل قبلة الأخطار
ويرى الموت قد أطلّ عليه ... كاشر الناب جائع الأظفار
لا يبالي به ويسخر هُزءاً ... من مشيب قبل اسوداد العذار
كيف يرتاع والنبوة غذته ... حديد المهند البتار
يا وفاء الصَّديق في رحلة الحق ... سلامٌ عليك يا خير جار
كنتَ درعاً إقامة ومسيراً ... ونصيراً يرجى لدى إعسار
علم اللّه ما انطويت عليه ... فجزاه إمامة الأبرار
وكفاه على الجزاء دليلاً ... ثانيَ اثنين إذ هما في الغار
نغم الغار بالنبي طروباً ... والصَّدى عازف على الأوتار
نغم الغارُ مرحباً بالهدى المحض ... بلحن التكبير والإكبار
مرحباً بالحياة أرسلها اللّه ... لدنيا تورطت في العُثار
كم حسدنا حراء حين ترى الروح ... أميناً يأتيك بالأنوار
فحراءُ وثورٌ صارا سواء ... بهما أشفع لأمة الأحجار

عبدونا ونحن أعبدُ للّه . . من القائمين بالأسحار
تخذوا صمتنا عليهم دليلاً فغدونا لهم وقود النار
قد تجنّوا جهلاً كما قد تجنّوه . . على ابن مريم والحواري
أنزلا منزلاً كريماً على اللّه . . منيعاً على أذى الكفار
فعلى مَدْخلي تقام خيوطٌ تتحدّى عزائم الجرار
هي أوهى البيوت لكن سقفها عزة الصلب قوة القهار
أنا عينٌ وأنتما النور فيها وهو فيها كالهدْب بالأشفار
وسيأتي الحمام يَفرَخ أمناً وسلاماً يكون خيرَ شعار
لا تراعى أسماء هيّا إلينا وأعيني على سماحة قاري
واخطري كاليقين يهزأ بالشك حياة من الدجى في خيار
خاتم الرُسْل لا أطيق وداعاً وعن المجتلى يعزُّ اصطباري
غير أني أرى المدينة ظمْأى فاروها طالعاً يبلُّ لواري
أنا آثرتها على كفاء وجزاء الإيثار بالإيثار
أطرق الغار خاشعاً وسرى الهادي . . حياة تدبُّ بين القفار
فمشى الخير حيث يمشي وولّى كل غدْم وطاح كل افتقار
وأتى أم معبد فتسامتْ وهي من فكرة القِرى في دوار
ويحها . . ويحها وويح كريم حين تؤذيه صدمةُ الإعسار
قدّمت شاتها بضرع بخيل فإذا مسْه فال كالمدرار
وإذا اللّهُ كان عونَ نبي فازجر العقلَ عن حدود اقتدار

حرقت قلبها المدينة شوقاً عبقرياً لطلعة المختار
أسرعي ناقُ فوق رحلك نور ترتجيه مواكب الأنصار
رحمة للحبيب يرجو حبيباً فيرى الدهر في أقلّ انتظار
حشدوا حشدهم فلما تجلّى كبر الحشد من جلال الوقار
مرحباً مرحباً بأكرم داع وعلى الرّحب يا جليل المزار
أنتَ بشرى عيسى ودعوة إبراهيم . . جاءت سليلة الأطهار
أنت يا غرةَ الوجود خيارٌ من خيار مقطّرٌ من خيار
فاقض فيما لنا بما أنت قاضٍ ذاك حق الأنصار في كل دار

جلجل الحقُّ قوة وحجاجاً واضحاً نهجُه وضوحَ النهار
فذها الشرك ما دهاهُ وخرّت جبهةُ الغيّ في سحيق القرار

❁ ❁ ❁

ذكّرينا يا هجرة الحقّ ما قال وكيف استهلّ خطو السّفار
واملئي الناس عزّة وطموحاً وأرينا روائع الآثار
إنما أنت عبرة وتأس صيّروها ضرباً من الأخبار
أيقظي الشرق من سبات عميق واحمليه إلى مدار الدرار
فيه من محكم الكتاب ملاذٌ فاقدحي يا رؤوسُ فالزندُ وار
علّميه الفداء حزماً وعزماً فجنى النحل من أذى المشتار
علّميه أن الحياة صراع من سها فيه ذل في المضمار
علّميه أن القويّ ظلوم كم يهادي كبارهم بالصغار
فقوى على الضلال مقيم وقطيع من الضعاف يجاري
أيها المسلمونَ في أمم الأرض أيرضى الإسلام ما هو جار؟
كيف باللّه تستقرُّ نفوسٌ والأشقاء بيننا في اشتجار
أتقول الإسلامُ ظلماً وجوراً وفلسطين لم تعد من ديار
«إننا عائدون» تصرخ فينا صرخةٌ تستغيث معنى الشّعار
دولةُ العلم والسياسات والحرب .. ودُنيا الهوى والاستعمار
كلُّ دنيا تُبنى على غير دينٍ فبناءٌ على شفير هار[1]

---

(١) من قصيدة موكب النور للشيخ الإمام.